

## يا زهرة المدائن!

د. بسام صابور

معماري، استاذ جامعي، مؤلف. تركز أبحاثه على  
البيئة المبنية وعلى الثقافة في الفراغ شرقي البحر المتوسط.  
البريد الإلكتروني bassamsabour@gmail.com  
هامبورغ، ٩ ايار ٢٠٢٤

### جزء من الحياة اليومية

القدس العتيقة.» بالرغم من أنّ القدس قريه من دمشق  
جغرافياً، لكنّ كل شيء جعل منها وكأنّها المدينة الممنوعة  
التي تُعرف بالصور فقط. حتى جاء في أحد الأيام من  
زارها بشكل حقيقي!

### الحج الى القدس

آدم وحواء زارا القدس قبل سنوات، ودونا في دفتر  
الذكريات اليومية ما يلي:

«تذّكرنا الرحلة إلى القدس بمعبّر حدودي برّي عاديّ  
في الشرق الأوسط: مليء بالتوتر كما هو الحال في فيلم  
بوليسي على التلفزيون الألماني الأول. لكن السؤال هنا ليس  
حول الجريمة والإثارة ومن هو الفاعل، بل من يُسمح  
له بالدخول ومن لا يُسمح له! قَبَلْنَا لم تُمنح سيّدتين مع  
أطفالهما تأشيرة الدخول لان الزوج فلسطينيّ ويجب انتظار  
الموافقة من المركز. عندما جاء دورنا تسمّرنا أمام نافذة  
شرطيّ الحدود وحبسنا أنفاسنا. «أين مكان الولادة»، سال  
الشرطيّ! «سوريا» أجابت حواء، وأنا قلتُ بهمسٍ يكاد لا  
يسمع «دمشق»! عند ذلك رفع عينيه الي وسأل بفضول:  
«هل تعرف بكداش في سوق الحميدية، في مدينة دمشق  
القديمة»، وهو محل معروف جداً في جميع أنحاء الشرق.  
وفجأة انفجرت الاسارير واختفى الخوف وتحدثنا عن  
المتجر والأيس كريم. مُنحت التأشيرة: يا لها من فرحة!

بمجرد وصولك إلى هناك، سيستغرق الأمر يوماً حتى  
تدرك أنّك موجود بالفعل في القدس! البلدة القديمة مبنية  
بالحجر الجيري، ولها هندسة معماريّة جميلة جداً، وأزقة

١٩٤٨ جسر بنات يعقوب: هذه الجملة كتبها والدي  
بخط يده الانيق والحبر الأسود بالريشة، على الإطار  
الأبيض السفلي من الصورة الفوتوغرافية بالأبيض والأسود،  
ويظهر فيها كعسكريّ مع زملائه في حرب فلسطين. هذه  
الصورة وغيرها الكثير كانت ملصقه على الورق المقوى  
الأسود ومحميّة بورق شفاف والمجموع يشكل ألبوم صور،  
الذي كان تقليب صفحاته في طفولتي رحلة جميلة في تاريخ  
عائلتنا، والناس كيف كانت ...

في طفولتي كانت رحلات المسيحيين إلى القدس متوفرة.  
منهم، من أقاربنا في اللاذقية، من كان يمضي أياما في منزلنا؛  
وبعد زيارته المدينة المقدسة يعود إلى منزلنا ليمضي ليلة أو  
أكثر قبل عودته إلى اللاذقية. هؤلاء الأقرباء هم من عرفوني  
على حرفيي القدس المسيحيين الذين ينحتون من خشب  
الزيتون قوافل الجمال المترابطة والايقونات المسيحية. من  
كل ذلك، بقي لديّ صليب من القدس مُصدّف جميل  
مشغول بحرفية عالية، عتيق من تلك الأيام البعيدة.

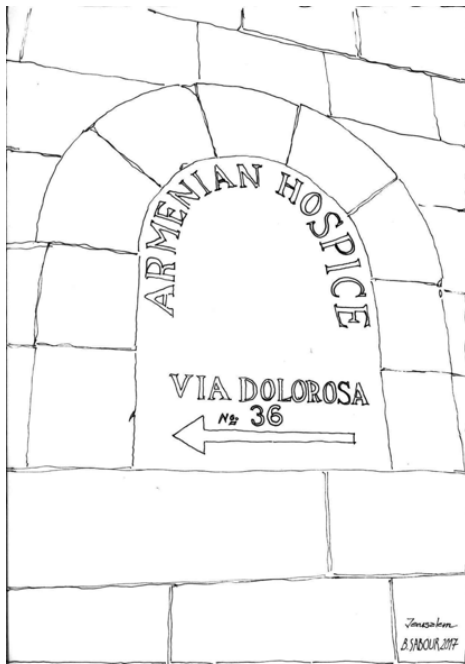
بعد ذلك بسنين عملت في الصيف كطالب عمارة في  
ورشة ترميم أوتيل بلودان الكبير. كان سائق مواد البناء  
يأتي من دمشق بسيارته الشحن المتثاقلة ويحدّثني أنّ  
في طفولته كان الناس يسافرون إلى القدس بشكل طبيعي  
جداً. كلنا نذكر فترة النضال الوطني التحرري، فقد عشنا  
حرب الجزائر وحرب قناة السويس، وكانت قضية فلسطين  
حاضرة في طفولتنا وشبابنا. حتّى ان فيروز غنّت للقدس  
التي زارتها قبل عام ١٩٦٧، والتقت هناك طفلاً في «شوارع

رائعة مع ساحات صغيرة، وكل شيء فيها مصنوع من الحجر.

الشكل ١: رسم سريع في شارع الالام وعلى اليمين الدرج المؤدي للمدرسة العمرية.



الشكل ٢: رسم سريع في شارع الالام للجدار مع لافتته تشير الى المأوى الارمني.



تتكوّن البلدة القديمة في القدس من أربعة أحياء: للمسيحيين، للمسلمين، لليهود، وللأرمن. طريق الآلام، شارع الأم، مهم جدًا بالنسبة للمسيحيين: ضوء شهر أيار، ونظافة الفراغ، وأبعاد الشارع، تعطي إحساسًا مريحًا ومحببًا. أرادت حواء زيارة مبنى سكني، لتتعرف على العمارة السكنية المقدسية، لكنها لم تجد بيتًا للزيارة؛ فهناك تجد المحلات التجارية والمدارس وأبنية المبعوثين الأجانب والمباني الدينية، ولكن لا تجد مبانٍ سكنية، على الأقل على طول الشارع الرئيسي. ولكن حواء اكتشفت أن بنية المدينة مشابهة لتلك الموجودة في مدينة دمشق حيث قامت بأبحاثها العلمية لسنوات.

هناك أيضًا الكنائس والكاتدرائيات والمجمعات الدينية والمعابد اليهودية والمصليات والأديرة... وبالطبع الأسواق التي لا نهاية لها. كل شيء مصطف بجانب بعضه البعض، من جميع الجهات، في مساحة صغيرة جدًا. على الطريق كان هناك حارة سدّ تطل نافذتها في النهاية على قبة الصخرة البديعة. الحرس الفلسطيني سمح لنا بالدخول، لكن الحرس الإسرائيلي رفض لأن هناك أيام محدّدة لدخول السياح. عندما علم الدليل الفلسطيني بذلك أصعدنا الى درج يلج المرء بعده الى المدرسة العمرية. وهناك، من خلال إحدى النوافذ، يطل المرء على المنظر البهي: ساحة كبيرة تتوسطها قبة الصخرة بجمال عمارتها وقبّتها الذهبية. بعد عودتنا الى شارع الالام (شكل ١) شاهدنا على الجدار لافتته تشير الى المأوى الارمني (شكل ٢).

من الخوف والخطر وعدم اليقين، مثل الحياة التي نعيشها كل يوم.

كان اليوم سبتاً وكان علينا أن نسرع: الحدود مع الأردن تظل مغلقة من الساعة ١١:٠٠ يوم السبت حتى الساعة ١١:٠٠ يوم الأحد لأن يوم السبت عطلة يهودية. وكان رحلة الحج مفيدة للغاية! «

«هي كل شيء!»

تعتبر الحرب الحالية في غزة، ونحن نعصرها كل يوم من خلال التلفزيون، من أكثر حروب التاريخ الحديث تدميراً، حيث تجاوزت أعداد القتلى وضحايا التشريد ما قام به المحتل خلال النكبة عام ١٩٤٨ على يد الجيش الاسرائيلي. كما تُحيك المقاومة اليوم بشكل جلي معاني التمسك بالوطن وبالهوية، رغم فقدان وكل محاولات المحو من قبل المشروع الاستعماري الاستيطاني منذ أكثر من ثلاثة ارباع قرن من الزمن.

منذ عقود تعيش منطقتنا سلسلة من الحروب الداخلية التي طالما كانت جزءاً حياً من تاريخ صراعنا ضد القوى الاستعمارية الاستيطانية وقوى الاستعمار العالمية، وما ينتج عنها من انقسامات وتمزقات في نسيجنا الاجتماعي وبيئاتنا وتضاريسنا، وواقعنا. ولا تزال تفرض هذه القوى اليوم تهديدات غير مسبوقه على المنطقة بأشكال وسياقات مختلفة. يقول سنان انطون «العراقيون يحاولون البقاء على قيد الحياة في وطن أطرافه مُزقت وصار جحيماً جمعياً». في جملة أنطون هذه، يمكن بكل سهولة استبدال مفردة العراق بفلسطين أو سورياً.

هناك ثقافات انتهت عملياً وما تبقى منها يليق بأن يكون في متحف. وإلا ماذا يعني أن أمريكا تتحدث الإنجليزية، وجنوب أمريكا الإسبانية، والشعوب الاصلية اختفت؟ في زمننا الحالي: السريان الارثوذكس كان يسكنون جنوب شرق

الحدث الأهم كان زيارة كنيسة القيامة المليئة بشكل دائم بأشخاص من القارات الخمس. تتكوّن كنيسة القيامة من عدّة أجزاء، كل جزء يعود إلى زمن ما وينتمي إلى طائفة مسيحية، تم بناؤها وإعادة بنائها على مرّ القرون. ولا يستطيع أيّ حاج رؤية قدس الاقداس (الهيكل الداخلي) إلا إذا وقف لساعات في طابور يبلغ طوله كيلومتراً، مع أناس آتين من كلّ بقاع العالم. بعد الحديث مع الرهبان اليونان - وهم من يدير هذا القسم - سُمِحَ لمجموعتنا السياحية بالوصول إلى خلية القربان المقدس دون انتظار وعلى الفور!

يُسمح للرجال فقط بزيارة حائط المبكى على أن يضعوا غطاء للرأس. لديّ غطاء رأس كما في الأفلام الغربية. عليك ان تمشي على طول الممر ثم تصل إلى الساحة أمام الجدار. بخطوات حذرة اقتربت من الحائط ولمسته. في الرؤية المخروطية بعيني اليمنى لاحظت وجود شخص ما خلفي. تحدّثت معي. تجاهلت صوته، وفي الواقع لم أرغب في رؤيته أو التحدّث معه، كان هناك صوت داخلي يحذّرني ويدفعني الى طريق العودة. واتجهت بخطى حثيثة مباشرة إلى اليسار. وصلت الى مسامعي أصواتنا بادئة أو لاحقة كأنها م. م. م. ... ومع كل خطوة كانت الأصوات تزداد، ويصبح الأمر أكثر وضوحاً، حتّى واجهت نفقاً عميقاً في النهاية: على الجانبين كانت هناك طاولات مدرسيّة وطلّاب العهد القديم يردّدون الآيات بصوت عالٍ مع حركة في الجزء العلويّ من أجسادهم. يذكرك المشهد بمدارس القرآن وطلّابه. شعرت بطاقة سلبية كبيرة وكأنني في فوهة مدفع تقول «إبتعد الآن قبل أن تلحقك النار». هذا كان شعوري! مشيت بسرعة عبر المخرج المائل، ثمّ خرجت. عندما التقيت حواء شعرت بالثقة، وبعد فترة شعرت بالأمان أيضاً.

القدس تحتاج إلى وقت! في رحلة العودة إلى عمّان، تفكّر: رحلة صعبة ومقدسة. القدس تعني كلّ شيء بالنسبة للديانات الثلاث... من السحر المذهل والجمال، ولكن أيضاً

شيء». ثم مضى إلى جيشه فاستدار بثقة عظيمة وابتسامة ثقة ثم ضمّ كفيه سوياً وقال: «كل شيء!». مظاهرات الطلاب المستمرة ليس فقط في أوروبا العجوز وإنما في عقر دار أمريكا، والمطالبة بالعدل في العالم وبإيقاف القتل (بعد ٣٤٠٠٠ ضحية منذ تشرين الأول ٢٠٢٣) خيطٌ فضّي نحيف في الأفق. إنّه الأمل!

في نهاية قداس عيد الشعانين سألني شاب سوري عن إمكانية حصول أهله على تأشيرة من مدينة صَدَد السورّيّة الى هامبورغ الألمانيّة لحضور خطبته. التفت الى يساره وقال هذه خطبتي. سألتها عن اسمها ومن أين جاءت! أجابت من الناصرة! في تلك اللحظة جاءني ذلك الإحساس الطفوليّ بلقاء أناس من مدنٍ تعود الى زمن وجغرافيا مستحيلة. لمستُ ساعدها لأتأكد أنّها فعلاً إنسانة حقيقيّة من لحمٍ ودمٍ من الناصرة!

تركيا؛ في الثمانينات في القرن الماضي كان عددهم حوالي ١٥٠,٠٠٠، أمّا اليوم عام ٢٠٢٤ فلا يعيش هناك أكثر من ٣,٠٠٠ شخصاً. الباقون غادروا وهاجروا إلى أوروبا. الأمثلة كثيرة في التخلي عن المكان والرحيل. المهاجرون يحاولون الحفاظ على هويتهم الثقافية ضمن أوروبا والسؤال حول مدى نجاحهم في ذلك متروك للأجيال القادمة. الحياة صراع معقّد ومستمر. الفلسطينين لا يريدون ان يغادروا. هم يحافظون بحماس على هويتهم في العلم والعمارة والسينما والأغنية وغيرها من الفنون، والآن في غزة يحافظون على هويتهم بالمقاومة.

في فيلم «مملكة السماء» حول احتلال الصليبيّين القدس في القرن الثاني عشر، هناك مشهد سينمائيّ مؤثر بين صلاح الدين وهو يتحاور مع الأمير باليان بعد هزيمه لحقت بالأخير لتسليم المدينة. سأل باليان صلاح الدين: «ماذا تعني لك القدس؟»، فأجابه صلاح الدين قائلاً: «لا